أراجيز المعسكر الحسيني

قراءة في ضوء بلاغة الجمهور

أ.م.د. علي مجيد البديري
كلية الآداب/جامعة البصرة
قسم اللغة العربية

مقدمة

بقيت الأرجوزة بوصفها فناً من فنون الشعر حبيسة الدراسات النقدية والأدبية التي تعنى بجمالياتها الفنية المحدودة ومضامينها المقيدة بسياقها الخاص (ساحة المعركة ومواجهة العدو)، وهو ما يمثل استجابة تقليدية موجهة ،غالباً، بطبيعة هذا الفن وشرائطه وغاياته التي لا تخرج عن كونه وسيلة من وسائل التعبئة القتالية، وهجوم استباقي يقوم به الراجز لمواجهة الخصم وإحداث التأثير النفسي المتوخى فيه، فهي أداة من أدوات الحرب النفسية أو الإعلامية باصطلاحنا المعاصر. وقد حجبت هذه الرؤية النقدية جانباً هاماً من جوانب الأرجوزة، يتعلق بارتباطها بسياقها العام، وصلتها بالخطاب المهيمن الذي تمارسه سلطة ما بشكل كبير على المتلقي، فلم تُدرس بوصفها استجابة مضادة لخطاب سلطوي، مقرونة بتمظهرات الرفض الأخرى غير الكلامية التي يمارسها الراجز/الرافض في ساحة المعركة.

ستحاول هذه الدراسة المتواضعة مقاربة الأرجوزة عبر هذه الزاوية المهملة، مفيدةً من اتجاه جديد في الدراسات البلاغية الحديثة، يعنى بمعاينة أشكال التفاعل التي يبديها المتلقي تجاه خطاب سلطوي ما، رفضاً أو قبولاً، على نحو سنبينه بإيجاز، لنشرع في محاولة قراءة الموضوعة الرئيسة للبحث.

بلاغة الجمهور: تعريفٌ موجز

تهدف بلاغة الجمهور إلى نقل عناية الدراسة البلاغية من (المخاطَب) الذي استحوذتْ خصائصُ خطابه على موضوعات البلاغة عبر تاريخها الطويل، إلى الطرف الثاني (المخاطَب) في العملية الخطابية؛ لترصد نمط استجابته، وتحلل خطاب المقاومة الذي ينتجه، فهي بذلك جاءت لتعنى بالطرف المهمل عادة في هذه العملية، وتسلط الضوء على نمط تفاعله مع الخطاب الموجه إليه، ناظرةً في أدوات هذا الخطاب وطرائقه التي يسلكها في التأثير على المخاطَب، وتبحث «في العلاقة بين الظواهر اللغوية المكونة لخطاب ما والاستجابة الفعلية التي ينتجها المستهدفون بهذا الخطاب، والعلاقة بين السلطة واستجابات الجمهور وأساليب التلاعب بها»[١]. وهو ما يعني تأمل هذه الاستجابة مهما كانت بسيطةً أو مرتجلة، لأنها في حقيقتها موقف الجمهور من نص المتكلم و إعادته تشكيل هذا النص على وفق فهمه وموقفه من مضامينه ، «لكن الغاية الأهم لهذه البلاغة هي تدريب الإنسان العادي على انتاج استجابات بلاغية فعالة تجاه كل ما يتلقاه، تمكنه من مقاومة الخطابات المتلاعبة التي تستهدف تضليله والسيطرة عليه، وفضحها، وإنتاج خطاب بديل يخلو من أشكال التلاعب والتضليل، بالإفادة من إمكانيات الاستجابة التي يتيحها عصر استجابات الجماهير»[٢].

وفي ضوء ذلك يقترح هذا الحقل البلاغي الجديد في جانبه الإجرائي إعادة قراءة المأثور من الخطابات المتنوعة التي هي شديدة اللصوق بحياة الفرد أيا كان وفي أي زمن عاش، ومنها الخطابات التي يجري تداولها نقدياً بطريقة ينقصها النظر في استجابات المتلقي لها. وتكمن أهمية هذه الاستجابات في كونها وعاءً يستوعب مقاصد المتلقي في كشف ما تحت بلاغة خطاب السلطة من غاية في قمع حرية المخاطب أو ترويضه واستدراجه، فضلاً عن ذلك تمثل استجابة المتلقي صورته الذاتية التي تنزع نحو التخلص من هيمنة السلطوي والوقوع تحت تأثيره،

---

[١] الخطابة السياسية في العصر الحديث: المؤلف الوسيط الجمهور: عماد عبد اللطيف، دار العين للنشر – القاهرة ، ٢٠١٥: ٥٤

[٢] بلاغة الحرية: معارك الخطاب السياسي في زمن الثورة: عماد عبد اللطيف، دار التنوير - بيروت، ط١، ٢٠١٢ : ٦٢

ولذا فهي تسجيل لموقف مختلف ورؤية خاصة وهوية مستقلة، يفرز تحققها خنوع الخطاب الجماهيري السلبي المستجيب طوعاً أو كرهاً لخطاب السلطة.

الأرجوزة بوصفها استجابة

تتأتى مناسبة دراسة الأرجوزة من وجهة نظر بلاغة الجمهور من جانب أن الأخيرة تهدف إلى «تأسيس بلاغة للحياة اليومية، تعنى بدراسة الأبعاد البلاغية لنصوص البشر العاديين، وكلامهم، واستجاباتهم في شتى مناحي الحياة»[١] إذ أن ناظم أرجوزة الحرب ليس بالضرورة شاعراً، هو أحد الجنود أو قائداً من قواده، وربما يكون ناظماً ليس له شأن مباشرٌ بالحرب، وهو ما نجده في بعض النماذج الحديثة في شعر الحرب الحديث.

لقد دُرست الأرجوزة ضمن إطار تقليدي في الدراسات النقدية القديمة منها والحديثة ، إذ تعرض الباحثون إلى السمات الأسلوبية والخصائص الفنية لبناء الأرجوزة، مع عناية بالموقف وسياق الحال الذي ترتجل فيه الأرجوزة عادة، وهي مسائل لا شك في أهميتها وأنها تغطي أبعاداً هامة من هذه الفن وجمالياته ومضامينه، غير أن الغائب عن هذه الدراسات عدم بالعناية بما تفعله اللغة في مقابل التركيز على ما تقوله، بمعنى أنها تمر سريعاً أو ربما لا تفعل بحقيقة كون الأرجوزة استجابة لخطاب سابق، وتفاعل معه من نوع خاص، فمن الممكن أن تقرأ بمصاحبة حال منشدها وهيأته وحركته فضلاً عن ملامح سياقه المختلفة ، إذ تعد كل هذه المصاحبات علامات خطابية تسهم في إثراء الدلالة وفهم الموقف.

من جانب آخر تحافظ الأرجوزة على حضور ضمني معين فيما ينتج من خطابات منذ ما بعد واقعة الطف وحتى يومنا هذا، تنسجم في مضمونها ودلالاتها وأهدافها، مع ما حملته الأرجوزة من ذلك؛ فنرى في الشعارات الحديثة والرايات الملونة المختلفة التي يرفعها الجمهور اليوم في إحيائه للشعائر عملية ترهين لخطاب الأرجوزة وإعادة انتاج له في سياقات أخرى جديدة غير سياقه الأصلي، مع تحول شكلي واضح في طبيعة الخطاب، غير أن المكون الجوهري له

---

[١] بلاغة الجمهور، مفاهيم وتطبيقات: تحرير وتقديم: د. صلاح حسن حاوي، د. عبد الوهاب صديقي، دار شهريار، البصرة ، ط١، ٢٠١٧: ٣١

ظل محافظاً على طبيعته، فالشعار الحديث كالأرجوزة تلك؛ يؤكد ابتداءً على الهوية؛ هوية الولاية، ويجسد استجابة لنداء النهضة الحسينية، فضلاً عن أبعاده الاجتماعية والعقدية الأخرى.

يمكن أن نحدد في النهضة الحسينية وما يتعلق بها وجود خطابين كبيرين، الأول: الخطاب الحسيني: وهو خطاب الإصلاح الذي يُختزل في جملة محورية مثّلَتْ شعاراً وهوية للنهضة وهي: (مثلي لا يبايع مثله)؛ قالها الإمام الحسين (عليه السلام) ، ضمن ردّه على طلب الوليد بن عتبة والي المدينة البيعة منه ليزيد بين معاوية، فكان الرد واضحاً، كاشفاً بقوة وحزم موقف الإمام: ((إنّا أهل بيت النبوّة، ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة ، ومهبط الرحمة، بنا فتح الله وبنا يختم، ويزيد رجل فاسق، شارب الخمر، قاتل النفس، مُعلن بالفسق، فمثلي لا يبايع مثله، ولكن نصبح وتصبحون، وننظر وتنظرون أيّنا أحقّ بالخلافة والبيعة))[١].

أراد النص هنا أن يحقق مقابلة بين صور ومفاهيم ، تتعلق بالولاية والإمامة و شروط الأهلية لذلك، في مقابل واقع الخط الأموي المنحرف عن الدين، والمستولي على الخلافة بطريقة غير شرعية، فضلاً عن ذلك فالخطاب صريح بالدعوة إلى القيام والنهوض بوجه الخرق والانحراف، فالأمر أمرُ أمةٍ لا فرد، ولذا جاءت إجابة الإمام (عليه السلام) على طلب الوليد البيعة ليزيد بأن تكون الدعوة أمام الجمهور وعلى مسمع منهم، ليستثمر الإمام قوة تأثير العامل الإعلامي والتبليغي وسعته في الحضور الجماهيري العام[٢] الذي ستسهل كثافته وتنوع أفراده تحقيق ما يريده الإمام لجوابه من سعة وسرعة كبيرتين في الانتشار، وسيوفر أيضاً سياقاً مناسباً لإعلان القيام، وكشف الزيف والألاعيب التي توسلها الخطاب الأموي في تولية يزيد، تحت غطاء جمع الأمة على كلمة واحدة. وسيكون من السهل أن يمارس الخطاب الحسيني تأثيره في الجمهور ويضمن تفاعله مع مقاصده الواضحة ، وهو ما يجسد وعياً بالفارق الكبير بين استجابة الجمهور لخطاب يتلقاه بشكل مباشر، يثري مضامينه ما للمتكلم من منزلة وخصوصية وقوة حضور، وبين استجابة لخطاب يصل عبر وسيط ، في سياق مختلف وبطريقة ربما تكون مغايرة للأصل بمقدار معين.

---

[١] الإرشاد: الشيخ المفيد، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، بيروت، ١٤١٦ هـ ٢: ٣٣.

(٢) ينظر : مع الركب الحسيني من المدينة إلى المدينة : مشترك ، الجزء الأول: الإمام الحسين (عليه السلام) في المدينة المنورة : علي الشاوي ، مركز الدراسات الاسلامية . قم ، ط٢، ١٤٢٥ هـ . ق/ ١٣٨٣ هـ . ش: ٣٥٨

في ضوء ذلك نلاحظ أن حضور جمهور المتلقين يشكل ركناً هاماً في الخطاب الحسيني، وقد اختزلت جملة (مثلي لا يبايع مثله) موقف المجابهة ، واستحالة القبول بالواقع الفاسد الي يراد تثبيت بقائه وتأمين امتداده. وما يجسد عمق دلالة هذه الجملة هو قابليتها على الانتقال من مستوى الموقف الخاص والتجربة الذاتية إلى مستوى التجربة الجماعية والموقف المشترك، وتحولها من جملة قيلت ضمن كلام للإمام (عليه السلام) إلى شعار جماهيري، وإطار يحيط حركات الرفض وثوراته التي تلت النهضة الحسينية في الكوفة وغيرها.

أما ما يمكن أن نعدَّه البيان الأول للنهضة الحسينية فهو الكتاب الذي قُرِئ في الكوفة على الملأ، وكان يمثل جواب الإمام (عليه السلام) على كتب الكوفيين، ونصه: ((بسم الله الرحمن الرحيم، من الحسين بن علي، إلى الملأ من المؤمنين والمسلمين، أمّا بعد؛ فإنّ هانئاً (الهمداني) وسعيداً (التميمي) قدما عليَّ بكتبكم، وكانا آخر من قدم عليَّ من رسلكم، وقد فهمت كلّ الذي اقتصصتم وذكرتم ، ومقالة جلّكم: إنّه ليس علينا إمام، فأقبل لعلّ الله أن يجمعنا بك على الهدى والحقّ، وقد بعثت إليكم أخي وابن عمّي وثقتي من أهل بيتي: مسلم بن عقيل، وأمرته أن يكتب إليَّ بحالكم وأمركم ورأيكم. فإن كتب إليَّ: أ نّه قد أجمع رأي ملئكم وذوي الفضل والحجى منكم على مثل ما قدمت عليَّ به رسلكم وقرأت في كتبكم؛ أقدم عليكم وشيكاً إن شاء الله، فلعمري ما الإمام إلاّ العامل بالكتاب، والآخذ بالقسط، والدائن بالحقّ، والحابس نفسه على ذات الله، والسلام))[١].

من الواضح أن الخطاب حافظ على التدرج في طرح الحجج وإقامتها على المتلقي، فليس الكتاب مجرد تلبية بلا ملامح أو رؤية واضحة، فهو يؤكد على أن قدوم الإمام (عليه السلام) مشروط بطبيعة واقع أهل الكوفة لا بما تضمنته كتبهم من كلمات استغاثة وادعاء نصرة، فضلاً عن أن الخطاب في سطره الأخير جاء ليؤكد مفهوم الإمامة، ويعيد صياغته أمام الجمهور الذي مازالت تطرق مسامعه مغالطات الخطاب الأموي ويتأثر افراده بأساليبه وغاياته. وقد جاء انسجام الجملة متضافراً مع سياقيها؛ الداخلي (الجملة في الكتاب)، والخارجي (طلب النهضة وتصحيح المسار)، فكان طرح الولاية بهذا التكثيف والإيجاز مقصوداً، لتعميق المطلب الحقيقي من

---

(١) تاريخ الامم والملوك: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية ، مؤسسة الأعلمي . بيروت : ٥ : ٣٥٣

النهضة، ومشعراً على نحو ضمني بما عهده أهل الكوفة فيما سبق من مظاهر الحكم الإلهي أيام خلافة أمير المؤمنين (عليه السلام)، ومذكراً بمواقفهم إزاءه، فالتجربة التي سيقبل المجتمع الكوفي على خوضها لا تختلف عما عرفوه في الإمامة الحقة ، وكأنه سؤال خفي: أتطيقون ذلك؟؟.

أما الخطاب الثاني فهو الخطاب المضاد الذي يمثله الجانب الأموي، وتتعدد اشكاله ايضاً بين ما هو نصي على شكل خطب ألقيت في مسجد الكوفة أو في دار الإمارة، أو ما جاء على شكل اعلان شبيه بقانون يشرع يتضمن حكماً (وعداً أو وعيداً، أو الأثنين معاً)، وبين ما هو عملي تجسد في ممارسات السلطة القمعية تجاه من عرف بالولاء لآل البيت (عليهم السلام) من المجتمع الكوفي في تفاصيل امتلأت بها كتب التاريخ وهي تدونها عبر رصد دقيق.

وتشكل الخطبة الأولى لابن زياد في الكوفيين، صورة واضحة تختزل أنماط الخطاب الأموي وتجسد سياسة الاحتواء وفرض السيطرة بأية وسيلة كانت؛ ولذلك يختار ابن زياد لبيانه الأول أنسب الأوقات (وقت صلاة الظهر)، وأفضل الأمكنة (مسجد الكوفة) ،((فاجتمع الناس وخرج ابن زياد فصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: أمّا بعد؛ فإنّ أمير المؤمنين أصلحه الله، ولّاني مصركم وثغركم، وأمرني بإنصاف مظلومكم وإعطاء محرومكم، وبالإحسان إلى سامعكم ومطيعكم، وبالشدّة على مُريبكم وعاصيكم، وأنا متّبع فيكم أمره ومنفّذ فيكم عهده، فأنا لمحسنكم ومطيعكم كالوالد البرّ، وسوطي وسيفي على من ترك أمري وخالف عهدي فليُبق امرؤٌ على نفسه، الصدق يُنبئ عنك لا الوعيد، ثمّ نزل))[1].

لقد وقف ابن زياد على جوهر ما يتمناه أغلب الكوفيين: سلامة النفس " فليُبق امرؤٌ على نفسه"، واختار ما يقلقهم ويشغل بالهم ليكون محور التخيير، إما السلامة وسبيلها الطاعة والبيعة، وإما المخالفة وعاقبتها السوط والسيف، قارئاً عبر ذلك الأحداث والأزمات التي مرَّ بها الكوفيون وكان خيارهم فيها الركون إلى السلامة وإن كان في ذلك الذل، وهم وإن لم يفصحوا عن تراجعهم عن نصرة الإمام الحسين (عليه السلام)، ولم يظهر ذلك في كلامهم، وجاءت كتبهم المرسلة إلى الإمام بخلاف ذلك، فإن ابن زياد قرأ ما تستبطنه نفوسهم، ولذا لم يستغرق في ذكر تفاصيل

---

[1] مقاتل الطالبيين: أبو الفرج الأصفهاني، منشورات المكتبة الحيدرية . النجف الأشرف، ط٢، ١٩٦٥: ٩٧.

عقوبة المخالف واكتفى بالوجيز، مكتفياً بقوة دلالة المثل (الصدق يُنبئ عنك لا الوعيد)[١]، وهو أشد وقعاً وتأثيراً من الافصاح، معولاً في ذلك على صورته في مخيال الجمهور، التي سبقته في الوصول إلى الكوفة.

البعد السيكولوجي والمعرفي للجمهور

إن ما يعطي الخطاب الأموي خصائصه وسماته يتمثل بالمحور الذي قام عليه بنيان دخولهم إلى الحكم وتنفذهم فيه، فتمحور الخطاب حول منطق القوة وبسط النفوذ بأية طريقة كانت، منطق (الغاية تبرر الوسيلة)، وأصبح المجتمع الذي سعى بنو أمية إلى تكوينه في الكوفة مهيأً لتقبل رفض عودة منهج أمير المؤمنين (عليه السلام) في الحكم، ومن ثم صارت خصوصية العلاقة بين أغلب عناصر المجتمع الكوفي وبين الولاة موجهة بسطوة هذا المحور، ولا شك في أن ذلك لا يعني خلو هذا المجتمع من معارضين ورافضين لهيمنة الأموي ثقافة وحكماً ونفوذاً، وهذا لا يتعارض مع الفكرة الأساسية التي أشرنا إليها من قيام الخطاب الأموي على بناء خاص واعتماده عليه في تحقيق حضوره والتمهيد لتأمين استمراره. يقع في مقدمة هذه الأركان الأساسية التي ارتكز إليها هذا الخطاب: القوة العسكرية، فهي أداة بسط السيطرة على الشأن الداخلي، وتأمين التوسع الخارجي لتحقيق أكبر قدر من المكاسب المادية، ولهذا كانت عناية الأمويين بإعداد الجيوش الضخمة عدداً وعدةً لمواجهة أي تهديد، سواء كان هذا التهديد بسيطاً أم معقداً ومهماً، ويؤيد ذلك ما عمد إليه ابن زياد من تضخيم خطاب القمع والتهديد قولاً وعملاً في حشده الأعداد الضخمة لجيش بلغ عدده عشرات الألوف على اختلاف الروايات لمواجهة المعسكر الحسيني الذي لا يتجاوز تعداده المئة فقط. وغير خاف ما يوفره الفعل في التحشيد من شحن أيديولوجي، سيوجه الجمهور غير المتوازن عقدياً نحو اعادة النظر في ثوابته، فضلاً عن سهولة وقوعه تحت هيمنة مركزية العنف والقوة.

---

[١] جمهرة خطب العرب: أحمد زكي صفوت، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي و اولاده بمصر، ط١، ١٩٣٣: ١: ٥٦ والجملة جزء من خطبة لأكثم ابن صيفي، سرت مثلاً يقصد منه أن ما يُخبر عن قوة الشخص فعلُه، لا وعيده وتهديده من غير إقدام.

إن من وسائل خطاب السلطة في تحقيق الشحن الآيديولوجي التأكيد على أن محاولات الخروج من اي شخص أو جهة كانت على وحدة الحكم وتهديدها ليست سوى تهديد للاستقرار ووحدة الأمة مهما كانت هوية القائمين بهذه المحاولة وخصوصيتهم ولو كان ابن بنت رسول الله (ﷺ)، ومن هنا تكون سمة الحدّة في الخطاب مُبرَّرة ، فإن عجزتْ أدواتُ الإقناع عن تحقيق الغرض فإن وسائل الضغط والتهديد والترويع ستحسم الأمر. ذلك إنَّ «الإيديولوجيا التي تشيع في مجتمع ما هي التي تجعل الفرد متقبلا لخطاب ما دون آخر، وتغييب هذا البعد، يحول دون الفهم السليم لمسألة الاستجابة ولعملية التأثير الإيجابي أو السلبي في الآخر»[١]، وغير خاف ما يُحدثه هذا الفعل من أثر نفسي عميق في الجمهور الكوفي؛ فكانت المسألة المحورية في الخطاب الأموي هي التأكيد على كون الإمام الحسين(عليه السلام) خارجياً ، أراد شق وحدة المسلمين، وهي مغالطة واضحة، وكذب أُريد له أن يكون متداولاً بشكل واسع في الوسط الكوفي وغيره، لضمان تحشيد الجيش الذي سيواجه الخارجين، ولتقبل ما سيقع من غير إنكار أو رفض.

خصوصية الفضاء البلاغي للأرجوزة

يقصد بالفضاء البلاغي المجال الذي يدور فيه الصراع البلاغي بين بلاغات السلطة وخطاباتها من جهة، و بين الجمهور من جهة أخرى. وقد يحتدم الصراع ويتطور إلى اقتتال بالسلاح، يسيطر فيه الأقوى فاعلية وحضوراً على الفضاء البلاغي.[٢] ومن هنا فإن فضاء الأرجوزة متسع لا يقف عند حدود فضاء المعركة بل يتجاوزه ليشمل فضاء الخطابين اللذين يقوم بينهما الصراع (الخطاب الأموي والخطاب الحسيني)، فهو فضاء رسَّخ بعدَه النفسي تلازمُ مكوناته؛ وهي الأمكنة المتعددة ذات التأثير المحوري في حياة الفرد آنذاك، حيث تحسم فيها العديد من أموره وشؤونه المصيرية: المسجد، قصر السلطة، الثغور ومنها (سوح المعارك). ولا تنفصل مكونات هذا الفضاء البلاغي عن لغة الخطاب وطبيعته، وشخصية المخاطِب (بكسر الطاء) وصورته القارّة في ذهن الجمهور ووعيه. فكان للخطابين ما يؤمن لهما الديمومة والأثر النفسي العميق، ودليل ذلك استمرار الصراع بينهما حتى وقتنا الراهن مع تحولات طبيعية في

---

[١] بلاغة الجمهور، مفاهيم وتطبيقات: ٧٠

[٢] ينظر: المصدر السابق نفسه : ١٣٢

أنماط الخطاب وأشكاله لتغير ملامح السياق. فلم يكن وعي أغلب أفراد الجمهور الكوفي في ما قبل عاشوراء وبعدها مرتفعاً إلى مستوى وجوب الوقوف المشترك إلى جانب النهضة والثورة، الأمر الذي تجسد في خذلان الجمهور المتجدد للثورات التي توالت بعد الطف، على الرغم من تماثل خطاب هذه الثورات مع النهضة الأم (النهضة الحسينية) ويعد هذا الجانب علة العلل في امتداد خطاب السلطة وهيمنته لعقود عاشها الحكم الأموي، و تجدد بشكل مماثل مع السلطة العباسية ليأخذ امتداده سعة أكبر من سابقه ويمتد لقرون عدة !.

وهكذا يجدر بقارئ الأرجوزة موضع الدراسة أن يتأملها في ضوء ارتباطها بفضائها البلاغي الخاص هذا؛ فهي شكل من اشكال استجابة الجمهور للخطاب الأموي، استعملها المحارب عتبةً لقتاله، يعلن فيها عن نفسه، وموقفه، وعقيدته، وفهمه لعدوه، فدلالاتها تجيء مناكفة الدلالة الأحادية الضيقة التي وضعت فيها الأرجوزة من أنها مقدمة للقتال، واعلان عن هوية المحارب فحسب.

حركية الاستجابة وفاعليتها

لقد حرصت الارجوزة بوصفها استجابة مغايرة ورافضة على تأكيد معنى المواجهة، بكل ما تتضمنه من دلالات على التعب الشديد والمكابدة، فلن يكون مشروع المصلح جاداً ابداً إن لم يأخذ في حسبانه بأنه سيواجَه بالحصار والضغوط والتهديد ثم الحرب في حالة تقدمه ونجاحه، الأمر الذي يفرض عليه أن يجعل في صلب مشروعه إشكالية المواجهة العسكرية مع عدو متفوق في العدد والعدة المادية، ومصمم على الحسم من خلال الحرب. ولذلك نقرأ إصراراً على ذكر خوض المعركة والدفاع عن عترة النبي (صلى الله عليه وآله) في أكثر من أرجوزة لأصحاب الإمام الحسين (عليه السلام) . من ذلك أرجوزة عمرو بن قرظة الأنصاري التي يقول فيها:

قد علمت كتائب الأنصار أني سأحمي حوزة الذمار

فعل غلام غير نكس، شار دون حسين مهجتي وداري[١]

[١] تاريخ الامم والملوك: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، مؤسسة الأعلمي . بيروت: ٣: ٣٢٤

من جانب آخر يمكن أن نرى في الشطر الأخير من البيت الثاني، معنى مركزياً أراده الراجز علامة فارقة لأرجوزته، مؤكداً شجاعة النفس في محاربة الهوى، بوصف ذلك المحك الكبير الذي تختبر فيه عزيمة المحارب وثباته، فليس هناك ما هو أغلى عند الرجل من نفسه وداره التي تأوي أهله وعياله، وتقديمهما فداءً لقضيته، وشاهداً على ولائه وبسالته. ويؤدي هذا الجزء من الارجوزة مهمة ربطها بفضائها، فهو يعمد إلى استدعاء صورة أخرى غير التي يجسدها، لا تخرج عن فضاء الأرجوزة، متمثلة بموقف عمر بن سعد من النهضة، «فإنه لما قال له الحسين (عليه السلام): صر معي قال: أخاف على داري. فقال الحسين (عليه السلام) له: أنا أعوضك عنها. قال: أخاف على مالي . فقال له: أنا أعوضك عنه من مالي بالحجاز. فتكرَّه »[١]، وهو ما قرأه المؤرخ ابن نما في نهاية الأرجوزة من أنه يتضمن تعريضاً خفياً بهذا الموقف.[٢]

وهكذا تختزل خاتمة الأرجوزة صورة الاستجابة برمتها، فهي تحرض المتلقي على استحضار الصورة النقيضة لها، التي هي جزء من الرصيد الخطابي أو الذخيرة الخطابية الأموية، وتدعوه إلى المقارنة بينهما، فالنصرة في موقف الراجز تنبسط لترسخ صورتها التي لا تقبل التعدد أو المراوغة، وستكون عاقبتها من سنخها، فالبيت التي ضحّى الأنصاري بوجودها المادي والمعنوي، مسجلاً فرادة الموقف، ووعياً بتضليلات الخطاب الأموي سرعان ما ينال مكافأته، إذ يبشره الحسين (عليه السلام) بقوله: «أنت أمامي في الجنة فاقرأ رسول الله عني السلام، وأعلمه أني في الأثر»[٣]، فيكون المكان في الجنة تعويضاً، وجائزة لا مثيل لها، في الوقت ذاته.

وشبيه بذلك أرجوزة سعد بن حنظلة التميمي:

صبراً على الأسياف والأسنّهْ صبراً عليها لدخول الجنّهْ

وحور عين ناعمات هنّهْ لمن يريد الفوز لا بالظنّه

يا نفس للراحة فاطرحنّه وفي طلاب الخير فاطلبنَّه[٤]

---

[١] مثير الأحزان: محمد بن جعفر الحلي ، مدرسة الإمام المهدي(عجل الله فرجه)، قم، ١٤٠٦: ٦١

[٢] ينظر: المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[٣] المصدر نفسه، الصفحة نفسها

[٤] مقتل الحسين (عليه السلام) : الموفق بن أحمد الخوارزمي، مطبعة الزهراء . النجف الأشرف، ١٩٤٨: ٢: ١٧

تجسد الأرجوزة هنا شكلاً من اشكال التفاعل ما بين استجابتين مختلفتين، فيستحوذ عليها هاجس تكبيت جمهور العدو المتقبل لخطابه والواقع تحت هيمنته، فكثيرة هي أصوات الجنود التي كانت تدعو على المعسكر الحسيني بالنار والعذاب الأخروي لأنهم خوارج، ونلاحظ تأثير الفضاء البلاغي لهذا التفاعل في ما ينتج من استجابات متقاطعة في تفاصيلها، وقد تظهر تجليات هذا التأثير في لغة الاستجابة، إذ يصل التوتر بين الجمهورين إلى حد الشتم واللعن، وهو أمر طبيعي في فضاء متشنج كساحة المعركة. وتندرج أبيات التميمي ضمن أراجيز أخرى مماثلة في كونها رداً على جمل الدعاء بالويل والنار التي يتلفظها جمهور العدو؛ ولذا جاء وصف الجنة شبه تفصيلي، واختار الراجز البدء بالحور العين، نكاية بالعدو وما يصير إليه قتلاه.

وتسلك أرجوزة عمرو بن مطاع الجعفي مساراً مماثلاً ، إذ يقول :

اليومَ قد طاب لنا القراع دون حسين الضرب والسطاع

ترجو بذاك الفوز والدفاع من حر نار حين لا امتناع[١]

هنا يكون خطاب الأرجوزة بمثابة رد بتفسير مضاد لما أشاعه خطاب السلطة، من أنّ الحرب حربٌ مع خوارج، إذ حرصت السلطة على أن تستعين بكل الوسائل التي تقوي خطابها وتعزز من قوة تأثيره في الجمهور، فإمعاناً في مجابهة خطاب الرفض كان النفير عاماً لممارسة ضغط نفسي يشعر المعسكر الحسيني بأقليته وخروجه عن الجماعة، وبأنه ذليل مخذول، إذ لا نصير له ولا معين. فتأتي الاستجابة مصاحبة لعلامات خطابية تثري مشهد الرفض والمواجهة، فالقراع وهو المطاولة والمنازلة، والاعتداد الباذخ بالشرف مطلع أرجوزة عمرو، والسطاع وهو رفع الرأس ومد العنق والانتشار تجسد استجابته البليغة؛ إذ لا ذل بل عزة تشرئب.

وفي تنويع آخر لمضامين الاستجابة، وتفاعلها مع فضائها البلاغي نقرأ أرجوزة عبد الرحمن بن عبد الله اليزني، التي قالها في أثناء نزوله للمبارزة :

أنا ابن عبد الله من آل يزن ديني على دين حسين وحسن

أضربكم ضرب فتى من اليمن أرجو بذاك الفوز عند المؤتمن[١]

---

[١] مناقب آل أبي طالب: ابن شهر آشوب، المطبعة الحيدرية . النجف الأشرف، ١٣٧٦: ٤: ١٠٢

يجسد نص هنا خلاصة رد قوي، وتكون بؤرة قوة هذا الرد في جملة (فتى من اليمن) إذ تعرِّض بالخذلان الكوفي، وتسعى إلى إضعاف الخطاب الأموي وتوهينه، وتجسد في الوقت ذاته خلاصها من تشويه الفهم الذي أراد هذا الخطاب نشره بين الجمهور وترسيخه، وهي بهذا تؤكد اختلافها عن استجابة جمهور معسكر العدو التي اتسمت بالخضوع، لتناغم الخطاب مع وعيهم وفكرهم ومطامعهم.

ومثل ذلك ما نقرؤه في أرجوزة نافع بن هلال الجملي:

أنا الغلام اليمني الجملي ديني على دين حسين بن علي

إن أُقتل اليوم فهذا أملي وذاك رأيي وأُلاقي عملي[٢]

وعلى نحو متصل يمكن أن نقرأ أغلب الأراجيز التي ابتدأت بالتعريف النسبي لأصحابها، بطريقة مختلفة ترتبط بسياقها الخاص، ومنها أرجوزة علي الأكبر(عليه السلام):

أنا علي بن الحسين بن علي نحن وبيت الله أولى بالنبي

والله لا يحكم فينا ابن الدعي أطعنكم بالرمح حتى ينثني

أضربكم بالسيف حتى يلتوي ضرب غلام هاشمي علوي[٣]

على الرغم من أنّ الأرجوزة هنا جاءت على وفق البناء التقليدي المعروف في هذا الفن، من الاستهلال بإبراز الذات والتعريف بهوية المبارز إلا أننا نجد خروجاً ذا مغزى عن هذا النسق، فالتعريف بالنسب يسعى إلى تكريس ضربات موجعة للسلطة / النكرة، التي بلا نسب، فهو تعريض مستتر، ورسالة مزدوجة يهتف بها الراجز بوجه الجيش الأموي، وهو في الوقت ذاته ينعطف بعد التعريف بنفسه إلى القول عادة بالتمسك بدينه، وانتمائه لولاية أهل البيت والتشرف بالدفاع عنهم، فهو مرتبطٌ بمن خلقت الأفلاك لأجلهم، ومن ثبتت الأرض بهم، وهو خطاب

---

[١] المصدر السابق نفسه : ٤ : ١٠١ – ١٠٢.

[٢] مقتل الحسين (عليه السلام): ٢: ٢٥

[٣] المصدر السابق نفسه :٢: ٣٤

يمارس ضغطاً نفسياً على الجيش فإن كان بعض أفراده من أعلام الكوفة فإنهم بانقيادهم لسلطة "ابن الدعي"[١] وارتباطهم به ينزلقون إلى وضاعة درجة السلطة نفسها.

لا شك أن لذلك دلالته المرتبطة بالواقع الكوفي آنذاك، وهو ما لاحظنا بعض ملامحه في البعد السيكولوجي للمجتمع الكوفي، فضلاً عن أثر المتغيرات الثقافية الكبيرة التي طرأت على المجتمع الكوفي بفعل سياسة القمع الممنهج الذي عمدت إليها السلطة الأموية تجاه الشيعة، ومحاولة تغيير بنيتها الاجتماعية، ولذا نقرأ كيف بلغ التعجب حداً كبيراً لدى الإمام الحسين (عليه السلام) من هؤلاء الذين غدروا ونكثوا وكذبوا، إذ يقول: ((أهؤلاء تعضدون وعنا تتخاذلون! أجل والله غدر فيكم قديم وشجت عليه أصولكم وتآزرت فروعكم فكنتم أخبث ثمر، شجى للناظر وأكلة للغاصب))[٢].

يضاف إلى ما سبق فإنّ من أبعاد خطاب الرفض والمواجهة في الأرجوزة أنّها مساحة لبيان منهج في التفكير والنظر إلى الدين والدنيا، أراد الراجز أنْ يقول للجمهور الواقع تحت هيمنة سلطة مضللة ظالمة، أنّ هناك خللاً في منهجيتك، فاضحاً بذلك مغالطات الخطاب الأموي؛ فالقول بالالتزام بالقرآن والسنة من غير عمل يطابقهما، وبصيرة تميز العدو الحقيقي وماهيته هو محض ادعاء ونفاق لا غير. وهذا تعريض بالذين أسقطوا أفكارهم وأمانيهم وتعلقهم بالدنيا على موقف السلطة الأموية وهي تقمع رافضيها وتَعِدُ مؤيديها بالعطايا والسلامة، وكأن مثل هذه النهضات المعارضة محكٌ يُكشف من خلاله الفرد الدنيوي من الجمهور في استجابته المتخاذلة وتُحرِّك استجابة الفرد الأخروي وتكثفها، وتصعِّدها، وترفعها إلى مرتبة أعلى. وكانت النتيجة أنْ أكثرَ عليٌ الأكبر فيهم القتل حتى ضجَّ أهلُ الكوفة لكثرة من قتل منهم، ويعود إلى المخيم .. ثم بعد ذلك يرجع إلى القتال، ويرتجز هذه المرة قائلاً:

الحرب قد بانت لها حقائق وظهرت من بعدها مصادق

---

[١] أخرج الطبري في تاريخه بإسناده عن أبي اسحاق ((إن زياداً لما قدم الكوفة قال: قد جئتكم في أمر ما طلبته إلا لكم، قالوا: ادعنا إلى ما شئت، قال: تلحقون نسبي بمعاوية، قالوا: أما بشهادة الزور فلا، فأتى البصرة فشهد له رجل)) . تاريخ الأمم والملوك : ج٦: ١٢٣.

[٢] اللهوف على قتلى الطفوف: رضي الدين أبو القاسم علي بن موسى ابن جعفر بن طاووس، المطبعة الحيدرية . النجف الأشرف، دار الأسوة . قم : ٤٢

والله رب العرش لا نفارق جموعكم أو تغمد البوارق[١]

تضع الأبيات الجمهور الآخر أمام انكشاف زيف ادعاءات الخطاب الأموي من أن الأحقية والشرعية لهم في خلافة النبي وإدارة شؤون الأمة وقيادتها. ويكاد تنفرد أرجوزتا الأكبر في التأكيد على ذلك، فنلاحظ في الأولى اكتظاظها بأسماء الأعلام، في كل بيت من أبياتها الثلاثة، في مقابل (ابن الدعي) النكرة على مستوى الدلالة، وهي تعرية لهوية الخطاب الأموي، فكان محور تأثيرها قائماً على العلامة الفارقة بين الطرفين التي تختصر الحق في تجلٍ واضح.

أخيراً نقول:

حاولت الأرجوزة بوصفها استجابة أن تمارس تأثيراً أوسع من الخطاب المتخصص من خلال طبيعة تركيبها وتداولها، فهي لصيقة بالحدث وأهميته (الحرب ونتائجها على المدى البعيد)، إذ لا يحد مديات حضورها سياقها الخاص الذي تشكلت فيه، ونتيجة لذلك يمكن أن تتسم بانفتاحها على المتلقي، الأمر الذي يفسح مجالاً أوسع وفرصة أكبر أمام مزيد من التفاعل، وهكذا تجيَر الأرجوزة بناءها التقليدي لتحقيق غرض حيوي، لا يفقد دلالته حتى ونحن نقرؤه الآن بعد مضي اكثر من ثلاثة عشر قرناً من الزمن.

* * *

[١] مقتل الحسين (عليه السلام): ٢: ٣٥

مصادر البحث:

١. الإرشاد: الشيخ المفيد، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، بيروت، ١٤١٦ هـ.
٢. بلاغة الجمهور، مفاهيم وتطبيقات: تحرير وتقديم: د. صلاح حسن حاوي، د. عبد الوهاب صديقي، دار شهريار، البصرة ، ط١، ٢٠١٧.
٣. بلاغة الحرية: معارك الخطاب السياسي في زمن الثورة: عماد عبد اللطيف، دار التنوير – بيروت، ط١، ٢٠١٢ .
٤. تاريخ الامم والملوك: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية ، مؤسسة الأعلمي . بيروت.
٥. تاريخ الامم والملوك: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، مؤسسة الأعلمي . بيروت.
٦. جمهرة خطب العرب: أحمد زكي صفوت، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط١، ١٩٣٣.
٧. الخطابة السياسية في العصر الحديث: المؤلف الوسيط الجمهور: عماد عبد اللطيف، دار العين للنشر – القاهرة ، ٢٠١٥.
٨. اللهوف على قتلى الطفوف: رضي الدين أبو القاسم علي بن موسى ابن جعفر بن طاووس، المطبعة الحيدرية . النجف الأشرف، دار الأسوة . قم .
٩. مثير الأحزان: محمد بن جعفر الحلي ، مدرسة الإمام المهدي(عجل الله فرجه)، قم، ١٤٠٦.
١٠. مع الركب الحسيني من المدينة إلى المدينة : مشترك ، مركز الدراسات الاسلامية . قم ، ط٢، ١٤٢٥ هـ . ق/ ١٣٨٣ هـ . ش.
١١. مقاتل الطالبيين: أبو الفرج الأصفهاني، منشورات المكتبة الحيدرية . النجف الأشرف، ط٢، ١٩٦٥.
١٢. مقتل الحسين (عليه السلام) : الموفق بن أحمد الخوارزمي، مطبعة الزهراء . النجف الأشرف، ١٩٤٨.
١٣. مناقب آل أبي طالب: ابن شهر آشوب، المطبعة الحيدرية . النجف الأشرف، ١٣٧٦.